# الآيات البينات

## في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات

تأليف

أبي الخطاب عمر بن الحسن ابن دحية الكلبي الأندلسي السبتي

المتوفى سنة ٦٣٣ هـ رحمه الله تعالى

دراسة وتحقيق

جمال عزون

مكتبة العبيكان العلمية

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الناشر
مكتبة العبيكان للعلمية
الإمارات العربية المتحدة - الشارقة - شارع الزهراء - الغوير
هاتف: ٥٦١٠٤٨٤ - فاكس: ٥٦١٠٤٩٤ - ص.ب: ٢٥١٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

# تقريظٌ

## بقلم : د . عاصم بن عبد الله القريوتي

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعدُ :

فلقد أطلعني الأخُ الشّابُّ الهُمامُ الشّيخُ جَمال عَزُّون ـ جَمَّلَهُ الله بالتّقوى ـ على تحقيقه لكتاب « الآيات البيِّنات في ذِكْرِ ما في أعضاء رسولُ الله ﷺ من المعجزات » لابن دحية الكلبيّ، من علماء القرن السّابع الهجري.

**فأمّا المؤلّفُ** : فهو أبو الخطّاب عمرُ بن الحسن بن دحية الكلبيّ، وقد وصفه الحافظُ النّاقدُ الذّهبيُّ في « تذكرة الحُفّاظ » ١٧/٤ ـ ١٩ بالعلاّمة الحافظ الكبير ...، كان بصيراً بالحديث، معنيّاً بتقييده، مُكِبّاً على سماعِه، حسنَ الخطِّ، معروفاً بالضّبط، له حظٌّ وافرٌ من اللُّغة، ومشاركةٌ في العربيّة وغيرها ...

وإنّ النّاظرَ في ترجمة ابن دحية الكلبيّ في « تذكرة الحُفّاظ » وغيرها من مصادر ترجمته، يجد أنّه قد تُكُلِّمَ فيه في جوانبَ، كادِّعائه أشياءَ لا حقيقةَ لها في حفظه لبعض الكتب، وفي مجازفته في النّقل، وأشياء إن

صحّت عنه فهي تقدحُ في عدالته، في جانب الرّواية لو تفرّد بشيءٍ، لكن الشّأنُ أنّه لم ينفرد بذلك؛ فمدارُ ما يذكرُه بسنده إنّما هو من المحفوظ من مؤلّفات أهل المصنّفات المعروفة .

**وأمّا هذا الكتابُ** : « الآيات البيِّنات في ذِكْرِ ما في أعضاء رسولُ الله ﷺ من المعجزات » فهو كما يتبادرُ من اسمه تناولَ فيه المصنّفُ رحمه الله ما جاء من آياتٍ وأحاديثَ وأخبارٍ في مدح وجه النّبي ﷺ، وعينيه، ولسانه، ويديه، وصدره، وأذنيه، وقلبه، وظهره، وشَعَره، وشفتيه، وأسنانه، وجوارحه، ودمه، ونفخه، وريقه، وتفله، ونفثه، وعرقه، وطُوله، ومشيته ﷺ .

كما تناول مدحَ الله تعالى خُلُقَ نبيِّه ﷺ، وأنّ الله كساهُ من نُور الجَلال حُلَّةَ المحبّة والجمال، وتناول أيضاً في كتابه طائفةً مباركةً من خصائصه ومعجزاته ﷺ ، ممّا أثرى بذلك الكتاب، وختم المؤلّفُ كتابَه بالكلام عن المدينة وأسمائها وفضائلها .

والكتابُ فيه علمٌ غزيرٌ، مع استطراداتٍ مفيدةٍ في اللُّغة، وبيان الغريب، والفقه المستنبط من النّصوص المستمدّة من القرآن والسُّنّة النّبويّة، بعد تخريجه لها، مع ذِكْرِه لأقوال الأئمّة في الرّجال، والمذاهب الفقهيّة لمسائل عديدة .

**وأمّا عملُ المحقّق** : فقد قدّم لتحقيقه للكتاب بمدخلين :

**الأوّل** : في تحليل مصادر ترجمة ابن دحية الكلبيّ تناول فيه ما ذكره المؤلّفُ عن نفسه، وما ذكرهُ عنه مترجمُوه، وبعض ما انتُقد عليه، وحلّلَ ذلك ووجّهَهُ، وقد أرجأ تفصيلَ ترجمته لتُنشرَ في كتابٍ مستقلٍّ .

**والثّاني** : مؤلّفات ابن دحية، وقد أطال فيها النَّفَسَ جدّاً، وتناولها من جوانب علميّةٍ عدّةٍ، ممّا يُؤهِّلُها بحقٍّ لأن تُضمَّ مع سابقتها في كتابٍ واحدٍ.

وإنّ أخانا الشّيخ جَمال قد جَمَّلَ الكتاب في جودة تحقيقه له من جوانبَ عدّةٍ أبرزُها :

ـ عنايتُه الجيّدة بالنّصِّ مع ضبطه .

ـ توثيقُه للأقوال والنّصوص التي يذكرُها المصنِّفُ من مصادرها الأساسيّة .

ـ اهتمامُه بتخريج الأحاديث وعزوها إلى مصادرها مع بيان درجتها، والمقارنة بين المتن الذي يذكرُه المؤلِّفُ وبين المتن الذي في مصادر التّخريج.

ـ وضعُه فهارس تفصيليّة متعدّدة للكتاب ممّا يخدمُ بذلك الباحثين في دراساتهم.

وفي الختام نسألُ الله أن يُوفِّقنا وإيّاه لكلِّ ما يخدمُ دينَه الحنيف، وأن يجعل أعمالنا جميعَها خالصةً له. وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه .

كتبه : د . عاصم بن عبد الله القريوتي.

المدينة في ليلة العشرين من شهر صفر لعام ألف وأربعمائة وعشرين للهجرة النّبويّة .

# بسم الله الرّحمن الرّحيم

## طَلِيعَةُ الكِتَابِ

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله .

أمّا بعد :

فقد أنعم الباري جلّ جلالُه على خَلْقِهِ فأرسلَ إليهم رسلاً مُبشّرين ومُنذرين، وكان خاتَمَ رسلِه وأنبيائه سيّدُ الخلقِ أجمعين نبيُّنا محمّدٌ ﷺ ، أرسلهُ ربُّه للنّاس كافّةً، فبلّغ الرّسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، فآمن به من كُتبت له السّعادة، وكفر من كُتبت عليه الشّقاوة، رغم ما رأوه من المعجزات الباهرات التي أيّد الله تعالى بها رسولَه ﷺ حكمةً منه سبحانه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، فكانت تلك المعجزات من دلائل صدق نبوّته ﷺ، وقد اهتمّ علماءُ الإسلام بالتّصنيف في موضوع دلائل النّبوّة وأولوه عناية كبيرة، وكتابُنا هذا « الآيات البيّنات فيما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات » أثرٌ من تلك النّفائس النّادرة خطّه يَراعُ حافظٍ أندلسيٍّ عاش جلّ حياته في المشرق العربيّ وفي مصر بالذّات وهو أبو الخطّاب ابن دحية الكلبيّ المتوفّى سنة ٦٣٣ هـ ، و قد ألّف كتابه هذا في أخريات حياته

كما صرّح بذلك في مقدمّته التي أشار فيها إلى قضيّة هامّةٍ جدّاً وهي وجوبُ الاهتمام بالكتاب والسُّنّة؛ ومن أجل ذلك صرف عنايته في مؤلّفاته إلى خدمة سنته ﷺ دعوة إليها وتصنيفا فيما يتعلّق بها فها هو يقول رحمه الله : « نحمدُ الله حمداً نستعجل به مزيدَ قَبوله ورضوانِه، ونستقبلُ به جديدَ رَوْحِه ورَيْحانِه، ونتوكّلُ على سَعة رحمتِه وغُفرانِه، ونبذل الوُسْعَ في خدمة النّبيّ الأمّيّ الذي أعلمنا برفعِ شانِه، ونستعمل ألسنتَنا في مدحِه الدّال على حبه الذي هو أحدُ واجبات المرءِ في إيمانِه، وندخل بعظيم بركتِه ويمنِ منقبتِه في أمنِ الله وأمانِه، ونحصلُ في الدّنيا في رضاه وفي الآخرة في غرفاتِ جنانِه، ونجعل خاتمةَ عُمُرنا في ذِكر خاتم النّبيّين وسيّد المرسلين بما يطابق من سرّ الذِّكْرِ وإعلانِه، صلّى الله عليه وعلى آلِه صلاةً تمكّنه من درجة الوسيلة في رفيع مكانِه .

أمّا بعدُ فإنّ الواجبَ الاشتغالُ بكتاب الله المُنْزَل، وبما صحّ من سنّة النّبيّ المُرْسَل؛ فإنّهما الأصلان اللّذان يقرّبان إلى الله تعالى بالقول والعمَل، وقد ألّفتُ في ذلك كتباً عديدَة ، قطعتُ لها من العُمُر مُدّةً مديدَة، رجوتُ فيها ثوابَ الله تعالى في الأخرى وما يقرب منه يومَ الزّلفى، وقد رأيتُ الآن أن أختِمَ ذلك بما خصّ الله به أعضاءَ رسولِه، وما مدحها به في محكمِ تنزيلِه ، وما ظهر لها من المعجزات المسندةِ الطُّرُقِ والرّوايات ممّا استفدتُه شرقاً وغرباً مِن ذوي الدرايات، لينفعني الله به والقارئين له في المحيا والممات ... ».

إنّ هذا الكتاب روضةُ معارف يَرى فيه القارئُ علوما شتّى وفوائد عدّة تخلّلت فكرته الأصليّة وهي الأشياءُ التي خصّ الله به أعضاءَ رسولِه

ﷺ، وما مدحها به في محكمِ تنزيلِه، وما ظهر لها من المعجزات المسندةِ الطُّرُقِ والرّوايات كما قال ابنُ دحية في المقدّمة، ورغم ما يشعر به القارئُ من استطراد كثير وخروج عن موضوع الكتاب قد يشتّت ذهنه أحيانا إلاّ أنّه في حقيقة الأمر وواقع الحال ينتقل من زهرة إلى زهرة ويقطف ثمرة تلو ثمرة، شأن كتب ابن دحية كلّها لا أكادُ أستثني منها شيئاً، ممّا يدلُّك على نفسية عالمٍ أندلسي عاش غريبا عن وطنه وأحسّ في ديار مصر بأنّه بُخس حقُّه من بعض علماء زمانه، فأراد أن يُعطي كلّ ما عنده، ويشعر الآخرين أنّه صاحبُ فنونٍ متنوِّعة، ولا يُعجزه حينئذ أن يجمع ولو تلميحاً قبساتٍ من تلك العلوم ليضعها في مصنّف واحد كما فعل في هذا الكتاب النّفيس؛ فرحم الله الحافظَ ابن دحية وأجزل له المثوبة، وحقّق له ما كان يؤمّلُه ويرجوه من ربّه جلّ جلاله بهذا التّأليف النّافع والأثر النّفيس ، إنّه جوادٌ كريم .

ولا أنسى ختاماً أن أشكُر فضيلة الشّيخ د. عاصم بن عبد الله القريوتي على ما تكرّم به عليَّ من تقريظٍ للكتاب، والأخ الباحث الزّميل عبد اللّطيف ابن محمّد الجيلاني على ما أبداهُ من ملاحظاتٍ قيّمةٍ، جعلَ الله ذلك في ميزان حسناتهما، وصلّى الله على محمّدٍ وآله وصحبه وسلّم .

وكتب : جَمال عَزُّون

في طَيْبَة الطَّيِّبَة بعد العشاء الآخرة من شهر شوّال ١٤١٩ هـ

# ابنُ دِحْيَةَ الكَلْبِيُّ
# وَ مَدْخَلٌ إِلَى مَصَادِرِ تَرْجَمَتِهِ
# مَعَ
# بَيَانٍ مُفَصَّلٍ
# لِتُرَاثِهِ العِلْمِـــيِّ

# مَدْخَلٌ

عشتُ مع ابن دحية برهةً من الزّمن أجمعُ أخبارَه وأتقصّى آثارَه، وأضعُ كلَّ شاردةٍ تتعلّقُ به في محلّها المناسبِ لها حتّى اجتمع لدي مع مُضيّ الوقت كُنّاشٌ كبيرٌ موزَّعٌ في بطاقاتٍ وقصاصاتٍ وجُزازاتٍ، استخرجتُها بفضلٍ منه سبحانه من مؤلّفاته المخطوطةِ والمطبوعةِ ومصادرِ ترجمته الكثيرة، ومن غير ذلك الشّيءُ الكثيرُ ، وانعقد العزمُ على أن تكون دراسةُ المؤلّف وما يتعلّقُ بترجمته في تحقيقي لكتابه هذا « الآياتُ البيِّنات فيما في أعضاءِ رسُول ا لله ﷺ مِن المعجزات » ، غير أنّ ضخامةَ المادّةِ واشتغالي بإعدادِ رسالة الدّكتوراه حالَ دون تحقيق ذلك ، فاقترحَ بعضُ الفضلاء ـ أحسنَ ا للهُ إليهم ـ أن تُفرد الدّراسةُ بكتابٍ مستقلٍّ يجمعُ حياتَه وآثارَه، فوقع منّي اقتراحهُم موقعاً حسناً، وصادفَ قَبولاً وارتياحاً، ورأيتُ حينئذٍ أن أقتصر على أمرين مهمّين :

***أحدُهما*** : مدخلٌ أتناولُ فيه بالتّحليل المصادرَ التي تعرّضت لابن دحية بالتّرجمة .

***والثّاني*** : تراثُه العلميُّ المتمثّلُ في مؤلّفاته .

# أوّلاً

# مَدْخَلٌ
# إلى مَصادرِ تَرجمةِ ابن دِحْيَةَ الكَلْبيّ

يُعتبرُ ما يكتبُه العلماءُ عن أنفسهم أهمَّ مصدرٍ تُعرف به حياتُهم العلميّة وأطوارُها وما يتعلّقُ بها من اسمٍ ونسبٍ وكنيةٍ وولادةٍ ورحلاتٍ وشيوخٍ ومؤلّفاتٍ وغير ذلك من أمورٍ لها صلةٌ وثيقةٌ بالعَلَمِ.

يلي ذلك ما يُدوِّنُه تلاميذُهم خصوصاً من حظيَ منهم بملازمة شيخِه مدّةً طويلةً تعرّفَ من خلالها عن كثبٍ على جوانبَ كثيرةٍ من حياته العلمية والأحرى إذا كان التّلميذُ ابناً للمترجم أو قريباً له.

وبعد هذا تأتي تراجمُ المعاصرين للعَلَمِ أو المتأخّرين عنه قليلاً ولا تخلُو هي الأخرى من بيان جوانبَ مهمّةٍ قد تُغفلُها المصادرُ السّابقةُ.

لقد تحدّثَ ابنُ دحية عن نفسه كثيراً وترك لنا مادّةً قيّمةً يمكن الاستفادةُ منها في دراسة حياته العلميّة وكشف جوانبَ مهمّةٍ منها أغفلتها كتبُ التّراجم، ومصنّفاتُه المتبقّيّةُ خيرُ شاهدٍ على هذا؛ فقد ملأها حديثاً عن شُيوخه ومُؤلّفاته ورحلاته ومرويّاته وأشعاره وآرائه في شتّى المسائل، إلى غير ذلك من أمورٍ لها صلةٌ وثيقةٌ به، بحيث يمكن تكوينُ معالم واضحةٍ عن حياة ابن دحية وشخصيّتِه العلميّةِ مِن خلال تلك العناصر التي تُكوِّن

في مجموعها ترجمةً ذاتيةً لها قيمتُها في مجال البحث العلميّ والدِّراسة الدّقيقة لحياة عَلَمٍ أقلُّ ما يُقال أنّه أثار ضجّةً في عصره جعلتْ أهلَ العلمِ ينقسمُون نحوَه إلى معجبٍ يُشيد بعلمِه ومكانتِه، ومُنتقدٍ يَرميه في الصَّميم ويأبى أن يعترفَ له بفضلٍ أو يشهدَ له بعلمٍ، غير أنّ ابن دحية يمضي قُدُما لا يَلوي على أحدٍ؛ فدرّسَ وألّفَ، وجرّحَ وعدَّل، وصالَ وجَال، وأكثر التّرحال، وجالس الرِّجال، انطلق من الأندلس ومرَّ بحواضر العالم الإسلاميّ مفيداً ومستفيداً حتّى وصل إلى المشرق، ورأى مِن أهل العلم مَن رأى، ورَوى مِن كتبهم ما رَوى، مع الحرصِ على علوِّ الإسناد، والأخذِ من أفواه المشايخ من المحدِّثين وغيرِهم، إلى أن وضعَ عَصا التّسيار في دار الكِنانة، في القاهرة إحدى أشهر مُدن العلم والحضارة، وقد لقي فيها كلَّ تَرْحَابٍ وأقبلَ عليه أُولوا الأمرِ من أصحاب الدَّولة الأيُّوبية وعلى رأسهم الملكُ العادِلُ الذي استأدبه لوليّ عهده الملك الكامل؛ فمضى هذا مع ابن دحية طالباً للعلم مستفيدا للأدب، وترعرعَ محبّا للحديثِ على وجه الخُصوص لأنّه رضعهُ من عالمٍ شُغف بهذا العلم وأحبّه حُبّا جمّاً، وتمرُّ الأيّامُ وتزيدُ مكانةُ ابن دحية في بلاطِ الملك الكامل حتّى بلغ به الأمرُ أن يُسوِّيَ له المَدَاسَ كما ذكر ذلك المؤرِّخون، بل بنى له دارَ الحديث المشهورة بين القصرين وجعله شيخَها القائمَ بتدريس الحديث فيها، وفي القاهرة كتب ابنُ دحية أغلبَ مؤلّفاته وأهداها إلى وليِّ نعمته وأشاد فيها بفضله عليه، تلك المؤلّفاتُ التي تُعتبر مصدراً مُهمّا في دراسة حياة ابن دحية، ومَرْتَعاً خَصْباً لكتابةِ دراسةٍ دقيقةٍ عن هذا العَلَمِ الغريبِ رحمه الله رحمةً واسعةً.

يأتي بعد هذا المصدرِ المهمِّ كتبُ التّراجم التي تناولت ابنَ دحية بالتّرجمة وهي كثيرةٌ جدّاً وإن كان في بعضها نقلٌ متكرِّرٌ ليس فيه نقدٌ أو تمحيصٌ، أو إضافةُ شيءٍ جديدٍ يتعلّقُ بالتّرجمة، كما أنّها متنوّعةٌ تنوّعَ مؤلِّفيها؛ فمنها مصادرُ مغربيّةٌ أندلسيّةٌ وأخرى مشرقيّةٌ.

إنّ أقدمَ مصدرٍ تناولَ ابنَ دحية بالتّرجمة يعودُ إلى القرن السّابع ـ عصر المؤلِّف ـ، إذ ترجمَ له ابنُ الدّبيثيّ[1] (٥٥٨ ـ ٦٣٧هـ) الذي التقى بابن دحية وعلّق عنه شيئاً لم يُفصح عنه، وتميّزتْ التّرجمةُ بالإيجاز وفيها ذَكَرَ ابنُ الدّبيثيّ اسمَ ابن دحية ونسبَه وهو عمرُ بن حسن بن عليّ بن محمّد بن فَرْحٍ الكلبيّ ابنُ دحية أبو الخطّاب سِبْطُ أبي عبد الله ابن أبي البَسّامِ العَلَوِيِّ، كان يُسمّي نفسَهُ ذا النّسبين بين دحية والحسين، وهذه التّسميةُ التي عَزاها ابنُ الدّبيثيّ له ظاهرةٌ جدّاً في مؤلّفاتِ ابن دحية لا تكادُ تخلو من عبارة: « قال ذو النّسبين »، وذلك إثر آيةٍ أو حديثٍ أو كلامٍ يُريدُ ابنُ دحية شرحَه أو التّعليقَ عليه، ثمّ ذكر ابنُ الدّبيثيّ أنّه من أهل سبتةَ وأنّه كان قاضياً بدانية إحدى مدن الأندلس الشّهيرة، لكنّه لم يجزم بالأخير بل أورده على سبيل الظّنّ، ثمّ أثنى على معرفة ابن دحية بعلم النّحو واللّغة وذلك ظاهرٌ جدّا في أسلوبه الأدبيّ بحيث أكثر من استعمال المحسِّنات البلاغية في تواليفه كالسّجع وغيره، ولعلّ ابنَ الدّبيثيّ عاين شخصياً هذه المعرفة بالنّحو واللّغة حين قُدِّر له الالتقاءُ بابن دحية وسماعُ كلامِه وشيءٍ مِن دُروسه، كما ذكرَ أنّ له بعلم الحديثِ أُنْساً إشارةً منه

(١) تصحّف في لسان الميزان ٢٩٨/٤ إلى : ابن النّرسي .

إلى تذوُّقِ ابن دحية لهذا العلم الذي كان جلّ تخصُّصِه فيه، ثمّ نقل ابنُ الدّبيثيّ عن ابن دحية قوله: إنّه حفظ صحيح مسلمٍ جميعَه وقرأه على بعض شيوخ المغرب مِن حفظِه، وكأنّ ابنَ الدّبيثيّ استبعدَ صحّةَ ذلك ولذا أردفَ قولَهُ بأنّ ابن دحية كان يدَّعي أشياءَ كثيرةً لكنّه لم يُفصح سوى عن قضيّة حفظه لصحيح مسلم، بعد هذا تطرّقَ إلى شيءٍ من رحلات ابن دحية وأنّه حجَّ ورحل إلى الشّام والعراق وأصبهان فسمع في الأخيرة مُعجم الطّبرانيّ من الصَّيدلانيّ، وبنَيسابُور صحيحَ مسلم من أصحاب الفُراويّ، وبواسط مسندَ الإمام أحمد من أبي الفتح المندائيّ، وهذه الكتبُ كان يَرويها ابنُ دحية بأسانيدَ له معلومةٍ أكثرَ من ذِكْرِهَا في مُؤلّفاته، ثمّ أخبرَ ابنُ الدّبيثيّ عن نفسِه أنّه علّقَ عن ابن دحية شيئاً، هكذا قال دون أن يُفصح لنا عن طبيعة هذا الذي علّقَهُ وكتبَهُ عن ابنِ دحية، وختمَ التّرجمةَ بصيرورة ابن دحيةَ إلى دمشق ثمّ إلى مصر ، والتحقَ في هذه بأمرائها ـ يقصدُ الأيّوبيّين ـ، ولم يكن الثّناءُ عليه جميلاً[1]، إشارةً منه إلى رأيه فيه رغم أنّه أخبر قبل ذلك بكونه علّق شيئاً عن ابن دحية، وهو ما فعل ذلك إلاّ لأنّه أهلٌ أن يُعلّق عنه.

إنّ هذه التّرجمة على وجازتها جمعتْ أصولَ التّرجمة من اسمٍ ونسبٍ وكنيةٍ ورحلاتٍ ومسموعاتٍ، وخلت كما هو ظاهرٌ عن ذِكْرِ مؤلّفات

---

(١) انظر المختصر المحتاجُ إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله محمّد بن سعيد بن محمّد ابن الدّبيثيّ انتقاء الحافظ الذّهبي ٣/٩٩ ـ ١٠٠. وهو في تاريخ ابن الدّبيثيّ الكتاب الأصل ل١٩٤ ـ نسخة باريس رقم: ٥٩٢٢ كما ذكر ذلك محقّقُ سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٨٩.

ابن دحية، رغم أنّ ابن الدّبيثيّ كتب تاريخَه هذا قبل سنة ٦٣٧هـ أو فيها على أبعدِ تقديرٍ، وابنُ دحية حينها قد مضى إلى ربِّه منذ أربع سنواتٍ وترك مؤلّفاتٍ كثيرةً لم يقف عليها فيما يظهرُ ابنُ الدّبيثيّ. ثمّ إنّ ابنَ الدّبيثيّ لم يُحدّد لنا المكان الذي التقى فيه بابن دحية ولا الزّمان الذي رآه فيه، وإخالُ اللِّقاءَ كان في بغداد أو في واسط أثناء رحلة ابن دحية إليهما باعتبار أنّ تاريخَ ابنُ الدّبيثيّ هو ذيلٌ على التّاريخ المُذَيّل لابن السَّمْعَانيّ على تاريخ بغداد للخطيب البغداديّ.

بعد ابن الدّبيثيّ نجدُ عالِما آخر عاصر ابنَ دحية وهو الحافظُ أبو عبد الله محمّد بن محمود البغداديُّ المعروفُ بابن النّجّار (٥٧٨هـ ـ ٦٤٣هـ) الذي التقى بابن دحية وكتب عنه، وتميّزت التّرجمة بالطُّول نسبياً، وكان أسلوبُه فيها لاذِعاً ونقدُه حادّاً للغاية، استهلّها ببيان نسب ابن دحية مُضيفاً على ابن الدّبيثيّ بعد « ابن فَرْحٍ » : « ابن خَلَف بن قُومِس بن مَزْلاَل[1] بن مَلال بن أحمد بن دِحية بن خليفة الكلبيّ، من أهل مَنُورَقَة[2] مِن بلاد الأندلس، ونقلَ عن ابن دحية أنّه يُسَمّى عبدُ الله وتُسمّى أمُّه أَمَة الرّحمن بنت أبي عبد الله محمّد بن أبي البَسّام ورفعَ النَّسَبَ إلى عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه، ولهذا كان يكتبُ بخطّه: ذو النَّسَبَيْنِ ابنُ دحيةَ والحُسَيْنِ، ثمّ ذكرَ ابنُ النّجّار قدومَه بغدادَ عليهم دون

(١) في الأصل : يزلال ، والتّصويبُ من مصادر التّرجمة الكثيرة .

(٢) كذا ضبطها ياقوت في معجم البلدان وأضاف أنّها جزيرةٌ عامرةٌ في شرقيّ الأندلس قرب مُيورَقَة، وحتّى لا يقع الاشتباهُ بينهما بيّن أنّ الأولى بالنّون والأخرى بالياء.

أن يُحَدِّدَ لنا سنةَ قُدومِه، كما ذكرَ أنّه أملى مِن حفظه، وكتبُوا عنه، وأخبرهم ابنُ دحية أنّه سمع من ابن الجوزي[١]، ويُضيفُ مِن شيوخه أبا سعد ابن الصَّفّار ومنصوراً الفراويَّ والمُؤَيَّدَ الطُّوسيَّ في آخرين، وحصّلَ الأصول، وهو يُشيرُ بذلك إلى ما عُرف به ابنُ دحية من نَهْمَةٍ في تحصيل الكتبِ والأجزاءِ، ثم ذكر سماعَهُ لكتاب الصِّلة من ابن بَشْكُوال ومن جماعةٍ أخرى بالأندلس، ثمّ بدأ ابنُ النّجّار يَرمي سهامَ النّقد اللاّذع فأخبر أنّه رأى النّاسَ مُجمعين على كذبه وضَعفه وادِّعائه لقاءَ مَن لم يلقَهُ وسماعَ ما لم يسمعه، دون أن يُحدِّد لنا ابنُ النّجّار أصحابَ هذا الإجماع المُدَّعى حتّى يُنظر هل إجماعُهم حجّةٌ في وَصْمِ الرّجل بالكذب والضَّعف وادِّعاء اللّقاء والسّماع ممّن لم يلقهُم أو يسمع منهم، ثمّ ذكر ابنُ النّجّار أنّ أماراتِ تلك التُّهم لائحةٌ على كلامِه بحيث كان القلبُ يأبى سماعَ كلامِه، ويشهدُ ببطلان قوله، ولسنا ندري طبيعةَ هذا القول الذي سمعُوه من ابن دحية حتّى يُعرض على ميزان النّقد والتّمحيص، ولعلَّ ابنَ دحية جلس عندهم في مجلس التّحديث وجعلَ يقول: أخبرنا فلان وفلان وفلان، وهو يقصدُ بالإخبارِ الإجازةَ شأنَ المغاربة والأندلسيّين في إطلاق ذا على ذا، فاتّهمُوه عندئذٍ بالكذب رغم أنّه مذهبٌ معروفٌ، وإخالهم صادفُوا من الرّجل اعتداداً بالنّفس فحسبوه تكبُّراً، ورأوا منه حِرْصاً على السَّماع من شيوخ الرّواية والتّلهّف على تحصيل الكتب والأجزاء ولم يروا منه كثيرَ عبادةٍ فحسبُوه تهاوناً في الدِّين، وسمعُوا كثرةَ كلامه في الجرح والتّعديل

(١) وابنُ النّجّار يُعدّ أيضا في تلاميذ ابن الجوزي .

فاعتبروه خُبثاً في اللّسان ووقيعةً في السّلف، وإن تعجبْ فاعجبْ لكلام ابن النّجار حيث يقول في وصف ابن دحية: « كان حافظاً ماهراً عالماً بقيُود الحديث، فصيحَ العبارة، تامَّ المعرفة بالنّحو واللّغة، وكان ظاهريَّ المذهب، كثيرَ الوقيعة في السّلف، خبيثَ اللّسان، أحمق شديدَ الكِبْرِ، قليلَ النّظر في الأمور الدّينيّة، متهاوناً في دينه »، فهم لا ينقمون عليه في علم بل يشهدُون له بحفظ الحديث ومعرفته والتّمهُّر فيه، مع الفصاحة والمعرفة التّامّة باللّغة والنّحو، وهذا ما يفسِّر لنا قولَ ابن النّجّار فيما سلف: « قدم علينا بغداد وأملى من حفظه، وكتبنا عنه »، لكن ينقمون عليه سوءاً في الأخلاق، وطيشاً في الكلام، واحتقاراً للمخالف، لم تصبر معه نفوسُهم، ولم تتحمّل منه ذلك، شأنَ كثيرٍ من العلماء آتاهم الله علماً ولم يُرزقُوا حُسناً في الأخلاق ولباقةً في التّعامل، وما أوجبَ ذلك طرحاً لهم في الرّواية، ولا وَصْماً لهم بالكذب، ولك أن تتخيّل عالماً كابن النّجّار لا يُقيم له ابنُ دحية وزناً ـ وكثيراً ما كان يفعلُ ذلك مع مَن لا يعرفُه ـ ، كيف سيكون موقفُه من تلك المعاملة وهو عالمٌ له وزنُه، وناقدٌ له ثقلُه، ومؤلِّف له في بغداد مكانتُه، لا شكَّ أنّه سيطرحُ هذا الرّجلَ الغريبَ عليهم القادم من أقصى الدّنيا مِن ربوع الأندلس وهو يدّعي علوماً بين أقرانٍ لم يُقم لهم وزناً ولم يعترف لهم بفضلٍ، وعلى كلٍّ حالٍ يبقى هذا رأيُ ابن النّجّار في ابن دحية وهو كلامُ قرينٍ في قرينه، شهدَ له بالعلم والحفظ من ناحية واتّهمه في الخُلق من ناحية، بل جاوز ذلك إلى اتّهامه بالكذب، وأورد شاهداً على هذه التّهمة ما حكاهُ عن صديقه إبراهيم السَّنْهُوريّ المحدِّث صاحب الرّحلة إلى البلاد أنّه دخل بلادَ الأندلس، وذكرَ لمشايخها

وعلمائها أنّ ابنَ دحية يَدّعي أنّه قرأ على جماعةٍ من الشُّيوخ القُدماء، فأنكروا ذلك وأبطلوه وقالوا: لم يلق هؤلاء ولا أدركهم وإنّما اشتغل بالطّلب أخيراً، وليس نسبُه بصحيحٍ ودحيةُ لم يُعقب، فكتبَ السّنهوريُّ محضراً وأخذ خطوطَهم فيه بذلك، وقدم به ديارَ مصر، فعلم ابنُ دحية بذلك فاشتكاهُ إلى السُّلطان وقال: هذا يأخذُ عِرْضي ويُؤذيني، فأمر السّلطانُ بالقبض عليه، وضُرب وأُشهر على حمارٍ، وأُخرج من ديار مصر، وأخذ ابنُ دحية المحضرَ وخرقهُ.

إنّ صاحبَ هذه القصّة هو أبو إسحاق إبراهيم بن خلف بن منصور الغَسَّانِيُّ السَّنْهُورِيُّ (٥٧٣ ــ ٦٢٠هـ) معاصرٌ لابن دحية، ويذكر ابنُ المُسْتَوْفِي أنّه كانت فيه جرأةٌ وسوءُ أخلاقٍ[1]، وإخالُ هذه الجرأةَ حملتهُ على أن يتكلّف الاشتغال بأمر ابن دحية والاهتمام به والسّعي في كتابة محضر من علماء الأندلس كما يقول هو وإلاّ فلم يُسَمِّ واحداً منهم حتّى يَنظر فيه النّاظرون بعين الدقّة والتّمحيص، ثم إنّ في المحضر المزعوم أنّ ابن دحية اشتغل بالطّلب أخيراً، وما ذا في ذا؟ فكم من عالمٍ فتح الله عليه في أقصر مدّة وأوجز فترة، ورزقه فطنةً وذكاءً وحفظاً وبديهةً جعلته يستوعبُ العلمَ في زمنٍ يسيرٍ وأمدٍ قصيرٍ، ثمّ إنّ أرضَ الأندلس واسعةُ الأطراف شاسعةُ المساحة، والرّجلُ رُزق حبَّ الرّحلة والحرصَ على سماع العلم من أفواه الرّجال، وإلاّ فمِن أين له تلك الرّواياتُ التي يحدِّثُ بها عن شيوخه مع تحديد أسمائهم وتحليتهم بألقابٍ علمية تدلُّ على معرفةٍ صادقةٍ من ابن

(١) تاريخ إربل ١/٢٥٦ .

دحية لهم، بل إنّه يُضيف على ذلك تحديدَ زمنَ لقائه بهم ومكانَ حصول الأخذ عنهم، فما حيلتُنا في محدِّثٍ يقول مراراً: حدّثنا المحدِّثُ العَدْلُ أبو القاسم بن بَشْكُوَال قراءةً منّي عليه بمدينة قرطبة ...، أو يقول: حدّثني به ـ أي جامع ابن وهب ـ بالجامع الأعظم بقرطبة شيخُنا المحدِّثُ العَدْلُ مؤرِّخُ الأندلس أبو القاسم خَلَفُ بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاريُّ في شهر صفرٍ سنةَ أربعٍ وسبعين وخمسمائة ...، أو يقول: حدّثني شيوخي بخُراسان مجدُ الدِّين مفتي الفِرَق أبو سعد بن الصَّفّار بمدرستِه بِشَاذِيَاخ والزّاهدُ أبو الحسن الشَّعْرِيُّ قراءةً منّي عليه بمسجد المطرّز بنيسابور والعَدْلُ تاجُ الدِّين أبو القاسم الفُرَاوِيُّ قراءةً منّي عليه أيضا، إنّه يحدِّد أسماءَ شيوخه بدقّةٍ متناهيةٍ، وزمنَ حدوثِ الرّواية ومكانَه، بألفاظٍ وصيغٍ فخمةٍ قد يستهولُها بعضُهم، أمّا قدماءُ الشّيوخِ المشارِ إليهم في قصّةِ السَّنْهُوريّ فمن المحتمل جدّا أن يكون ابنُ دحية روى عنهم إجازةً وأطلق على تلك الإجازة صيغةَ الإخبار التي تُوهم حدوثَ اللّقاء والسّماع؛ لذا اعتبر هذا بعضُ العلماء تدليساً كالحافظ الذّهبيّ وغيره. وقد نقل هذه القصّةَ أيضاً ابنُ المستوفي وشكّك في نقل السَّنْهُورِيّ له فقال: « وجرت بينه وبين ذي النّسبين أبي الخطّاب عمرَ بن الحسن حالةٌ أُخذ لها وشُهِّر؛ وضُرب بالدُّرَّةِ وأرانا موضعَ أثر الضَّرْبِ برأسه، وذلك أنّه ـ فيما زعم ـ أخذ محضراً من المغاربة أنّ ذا النّسبين كذّابٌ أو نحوُه، ثمّ ورد الإسكندريّةَ فعلم به ذو النّسبين، فأحال[1] عليه في

(١) كذا في المطبوع ، وإخاله : فاحتال .

أخذ المحضر منه ورفعه إلى سُلطانها، ففُعل به ما حدّثنا به »[1].

وذكر المقريزيُّ في ترجمته للسَّنْهُورِيّ أنّه « دخل إلى بلاد المشرق مراراً، وقدم بغدادَ ونيسابورَ وأصبهانَ وشيرازَ وحلب، وعبرَ إلى الأندلس فقدم إشبيليةَ سنةَ ثلاثٍ وستّمائة، وكان ينتحلُ مذهبَ الفقيه أبي محمّد عليّ بن أحمد بن حَزْمٍ، ولّما نزل مصرَ تكلّمَ في الحافظ أبي الخطّاب عمر بن دحية، فشكاهُ إلى السُّلطان الملك الكامل محمّد بن العادل أبي بكر بن أيّوب، فضربه بالسّياط، وطوّف به على جملٍ وأخرجه من ديار مصر ».

ثم نقل عن ابن عساكر قولَه : « وكان يشتغلُ في كلِّ علمٍ والغالبُ عليه فسادُ الذِّهن لم ينجحْ طلبُه في شيءٍ من ذلك. وكان مُتَسَمِّحاً فيما يفعلُه ويرويه عمّن لقيهُ، وكان أوّل أمره حين قدمَ دمشقَ ذكرَ أنّه ينتسبُ إلى بني مازنٍ، ثمّ انتسبَ إلى غَسَّان، ووردت معه إجازةٌ أخذَها من بلاد المشرق مَنْ وقف عليها علمَ ما ذكرتُه عنه مِن التّخليط » .

ونقل عن أبي الحسن ابن القطّان قولَه : « ظهر في حديثه عن نفسه تجازفٌ واضطرابٌ وكذبٌ زَهَّدَ فيه » .

قال المقريزيُّ : « ولّما ضُرب طِيفَ به إلى أن انتهى إلى منزل ابن دحية، فلمّا سمع ـ أي ابن دحية ـ النّداءَ عليه خرجَ إليه وألقى عليه ثوبَه وكلّم فيه السُّلطان، فخرج أمرُه بالخروج عن الدِّيار المصريّة، فتوجّه نحو العراق ثمّ دخل بلادَ العجم، وتوفِّي هناك في حُدود عشرين وستّمائة

(١) تاريخ إربل ١/٢٥٨ .